العلاقة بين الأدب الشعبي والفصيح
دراسة وتحليل

*د . محمد مسعد معجب يحيى

ملخص البحث:

تهدف الدراسة وفق المنهج التاريخي الوصفي المقارن، إلى الكشف عن العلاقة بين الأدب الشعبي والفصيح، وإثبات الروابط بينهما تاريخيا وفنيا، وتبين دور كل منهما في حفظ التراث العظيم وإثراء اللغة، والتعبير عن ذاتية الشعب المنبع الرئيسي لكليهما ،وبينت الدراسة أن اختلاف الأدبين في الأسلوب -التقيد بالقواعد النحوية والصرفية -لا يعني أن الصلة بينهما مفقودة، بل إن مفردات الأدب الشعبي تلتقي مع مفردات الأدب الفصيح، وكل منهما جدير بالدراسة، وليس كما قال بعض الباحثين بإهمال الأدب الشعبي لعدم التزامه بقواعد النحو والصرف، وإن الأدب الفصيح هو وحده الأدب. فالعلاقة بينهما هي علاقة تواصلية، يشتركان من حيث الغاية والهدف ،وكل منهما يدل على حياة العامة والخاصة، وإن كلا منهما يعتمد على الآخر في توظيف المفاهيم الشعبية، والتعبير عن طبقات المجتمع، كما أثبتت الدراسة أسبقية الأدب الشعبي، وما كان تأخره إلا بسبب الرسمية السائدة لدى الحكام والخواص. كما فندت الدراسة سمات الأدب الشعبي، التي تمثلت في العراقة والواقعية والجماعية والتداخل ، وظائف الأدب الشعبي المتمثلة في ترسيخ المعتقدات والمبادئ والقيم والمفاهيم.

مشكلة الدراسة:

تبرز مشكلة الدراسة من خلال الإهمال المقصود للأدب الشعبي، وعدم الاهتمام به، وإنكار بعض الباحثين له لعدم تقديمه الدليل على صحة القاعدة النحوية، ولأن معانيه عامية عارية لا ابتداع فيها، ولا يعد أدبها أدبا رسميا يدرس ويحتذي به المتعلمون.

واعتقاد بعض الدارسين أن الأدب الفصيح هو وحده الأدب، لعدم وجود اللحن فيه، وفي الحقيقة فأن اللحن ليس محصوراً على الأدب الشعبي فقط، بل إننا نجد اللحن وتفاهة المعنى في الفصيح ،فهذه النقاط كانت السبب الرئيسي لهذه الدراسة.

المقدمة:

الأدب كلمة لها معان كثيرة اختلفت معانيها باختلاف حياة الأمة وانتقالها من مرحلة لأخرى ،وكانت تلك الاختلافات متقاربة، حتى استقرت هذه المعاني على المعنى المتبادر في أذهاننا اليوم، وهو الكلام البليغ الذي يقصد به التأثير في عواطف القراء والسامعين، سواء أكان شعراً أم نثراً [1] .أما المراحل التي مرت بها هذه الكلمة عبر العصور، حتى وصلت إلى معناها السالف الذكر فهي في العصر الجاهلي بمعنى الداعي إلى الطعام، أي الذي يقيم مأدبة ،والمأدبة هي ما يدعى إليه من طعام ،وفي العصر الإسلامي دلت الكلمة على معنى آخر وهو التهذيب، ففي الحديث النبوي الشريف(أدبني ربي فأحسن تأديبي)[2].

أما في العصر الأموي فبقي هذا المعنى وأضيف إليه معنى تعليمي (معرفة الثقافة العربية ،وأصبحت تدل على دراسة الفقه والحديث وتفسير القران)،فصارت كلمة الأدب تدل على ما أنتجه العقل العربي من ضروب المعرفة، ومحاسن الأخلاق، وقد أفرد أبو تمام في حماسته باباً سماه باب الأدب. ولم تقف الكلمة عند هذا المعنى التعليمي الخاص، بل اتسعت لتشمل كل المعارف التي ترتقي بالإنسان من جانبيه الاجتماعي والثقافي .

وعلوم الأدب عند المتقدمين تشمل اللغة والصرف والنحو والمعاني والبديع والبيان والعروض والقوافي والخط والإنشاء والمحاضرات، وتطلق الآداب حديثاً على الأدب بالمعنى الخاص والتاريخ والجغرافيا وعلوم اللسان والفلسفة والآداب العامة [3].

أما كلمة شعبي فهي مشتقة من كلمة شعب، حيث جاء في لسان العرب أن الشعب هو ما تشعب من قبائل العرب،

* أستاذ الأدب العربي القديم المساعد، كلية التربية والعلوم برداع، جامعة البيضاء.

والشعب القبائل.. وحكى ابن الكلبي عن أبيه أن الشعب أكبر من القبيلة، ثم الفصيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ[4].

إذاً فالشعب هو مجموعة من الناس تختلف طوائفهم وطبقاتهم مجتمعين أو مفترقين ،وبما أن الشعب هو القبيلة العظمى أو مجموعة من القبائل، إذاً فقد تشعب أي تفرق وتباعد وانتشر، لأن أول معاني الشعبية هو: (الانتشار)، ومن ثم فإن كلمة شعبي تعني(التراثية والتداول)[5]، وتعني ما يقوله الشعب ويرده دون أن يعرف له قائل معين)[6]،وهذا التعريف ناتج عن أثر الفلكلوريين على النقاد، ومؤداه إسقاط أدب الشعب الذي أذاعته المطبعة ووسائل النشر الحديثة الأخرى من مسرح وإذاعة .

وتعريف آخر اعتمد على اللغة ميزاناً للحد، واعتبر أن الأدب الشعبي هو(أدب العامة سواء أكان شفهياً أو مكتوبا أو مطبوعا، وسواء أكان مجهول المؤلف أو معروف ،متوارث عن السلف أو أنشأه المعاصرون، والأدب الشعبي اليمني هو امتداد طبيعي للأدب الشعبي في كل الأقطار العربية ،الذي لا يختلف كثيراً عن الأدب الشعبي في الدول الإسلامية ،وبعد دخول الإسلام إلى البلدان غير العربية، أصبح الإسلام لهذه البلدان المنهج والدستور، فلم تكن هذه البلدان بمنأى عن الفكر والأدب الإسلامي والعربي، بل ظهر منها رواد للفكر العربي، وعلماء في علوم اللغة العربية وآدابها ويجب عدم التركيز على الأدب الفصيح، وإهمال الأدب الشعبي، هذا التراث الزاخر بجعله في درجة أقل أهمية، لأن هذا ظلم له، بل ظلم لتاريخنا وحضارتنا وثقافاتنا، بل يصل إلى حد التقصير في حق الأجيال العربية والإسلامية القادمة، فمن حقهم علينا مد جسور العلم والمعرفة والأدب الفصيح منه والشعبي (وهذا الأدب وإن فسدت لغته له قيمته الممتازة من حيث أنه مرآة صافية لحياة الأعراب فيباديتهم[7]، وطبيعي أن يكون لكل إقليم تراثه الشعبي فهذا أمر حيوي لكل تراث وأدب شعبي وإلا فقد هويته وخصوصيته وانتسابه لشعبه ، بل على العكس من ذلك فما هذا البحث وغيره من الدراسات في هذا المجال إلا محاولة للمحافظة على هذه الخصوصية من الضياع والاندثار والذوبان.(ولا يظن ظان أن هذا التوجه سيكون على حساب الأدب الفصيح أو اللغة الفصحى، بل على العكس سيكون ذلك في خدمة وإثراء لغتنا الفصحى وأدبنا العربي والإسلامي، حفاظاً وإثراءً وتطوراً وإحياءً، بل سيكون ركناً مهماً من أركان وحدتنا العربية والإسلامية المنشودة[8]، واللغة العربية بأدبها الفصيح والشعبي ما هي إلا وعاء لحفظ تراثنا العظيم . والأدب الشعبي الشفوي يسبق التراث ،وهو الذي يشكل تاريخ الشعوب وحضاراتها أكثر من تأريخها المكتوب ، وهو المعبر عن ذاتية الشعب يستوي فيه أدب الرواية وأدب المطبعة ، الأثر المعروف أو المجهول، فهو النابع من الأرض الخضراء وطلاقة الجو، فهو في غنائيته وسهولة مأتاه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأدب الرسمي (الفصيح). وأما أسلوبه فإنه مغاير لأسلوب الأدب الرسمي من حيث التقيد بالقواعد النحوية والصرفية ،وضوابط الإعراب المتبعة في المستوى الرسمي .

وهذا لا يعني بأن الصلة مفقودة بينهما ،بل إن مفردات الأدب الشعبي تلتقي بمفردات الأدب الرسمي، فكلاهما تفكير بالكلمات ،ومن هنا نجد أن الشعر الشعبي مثلا يحتاج في معجمه إلى معرفة طريقة الشاعر في الاشتقاق ،وكيفية استخدام الكلمة تركيباً، فثقافة الشعراء الشعبيين هي مزيج من الفصحى والعامية ،لأن أغلب الشعراء الشعبيين من المثقفين ،وعليه فإن الفصحى والعامية متلازمتان لا تنفصلان ولا تستغنيان عن بعضهما ،ولا يمكن الفصل بينهما، وتعد اللهجة العامية امتداداً للفصحى، وإن خالفت الفصحى في بعض التصاريف والصيغ لأسباب حسمت الخلاف لصالح الفصحى المختارة في كثير من اللهجات العربية المنتشرة حينذاك ،وبفضل تلك الأسباب بدأت اللهجات في الاندماج والتحول إلى لغة يختارها الفقهاء واللغويون، منها ما يناسب الوضع الاجتماعي وعندها فضلت الفصحى[9].

المبحث الأول : ظهور الأدب الشعبي

من الباحثين من ينكر أن هناك أدباً شعبياً لعدم التزامه بقواعد النحو والصرف، ولأن معانيه عارية لا ابتداع فيها [10]، من هؤلاء الأستاذ أحمد الشايب أستاذ الأدب بجامعة القاهرة سابقاً فيقول :إن العامية ليست لغة رسمية، ولا يعد أدبها

أدباً رسمياً يدرس على أنه مثل يحتذي به المتعلمون وذلك لسببين :أحدهما شيوع الخطأ اللفظي، والخروج عن قواعد النحو. وثانيهما : ما غلب على معانيه من التفاهة والعُرف، فأغلبه أوامر ونواه، وأخبار عارية تتصل بالحياة الجارية، ويتكرر كل يوم وكل وقت مما لا يستحق درساً، والأدب يجب أن يجمع أمرين صحة اللفظ وقيمة المعنى، أو سموه حتى يستحق أن يسمع أو يقرأ في كتاب [11]، ورداً على ما ذكره الشايب نقتبس ما ذكره ابن خلدون بقوله: (وهذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغتهم ، فلو حصلت له ملكة لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها، إذ كان سليما من الآفات في فطرته ونظره ،وإلا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة، وإنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال ، سواء كان الرفع دالاً على الفاعل ،والنصب دالاً على المفعول أو بالعكس ،وإذا طابقت الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ،ولا غيره لقوانين النحاة في ذلك[12].

وقد دحض ابن خلدون رأى القائلين بما قاله الشايب، وأرجع ابن خلدون هذا الرأي لتأثرهم بالنزعة اللغوية، و اتباعهم لها حيث قال: إن جمهرة المشتغلين بالأدب على أيامه كانوا ينكرون العاميات لنبوها عن قواعد النحو والصرف، وما زالوا يرددونه على ألسنة، أتباع الأدب الرسمي، لعدم توفر ملكة الأدب لديهم، وتمييز مواطن البلاغة في الأدب الشعبي، وترديدهم لآراء المتعصبين لما يسمونه اللغة الرسمية والأدب الرسمي. وليس ابن خلدون وحده من رد على هذا الرأي ،بل نرى الدكتور أحمد ضيف أستاذ الأدب العربي بدار العلوم والجامعة المصرية ينبري مدافعاً عن الأدب الشعبي، حيث اعتبر فن القول بالعامية أدباً جديراً بالدراسة، ففي المقدمة التي كتبها لكتاب (تأريخ أدب الشعب) يعيب انقياد الكثرة الكثيرة من دارسي الأدب للظن بأن الأدب الرسمي الفصيح هو وحده الأدب فيقول: ونسي هؤلاء أن للعامة أخيلة وآراء وعبارات تدل على حياتهم الاجتماعية العامة للشعوب ، كما تدل آراء الخاصة وأخيلتهم على تلك المعاني المملوءة بالثقافة الخاصة[13].

وهذه المسألة تعم الأدب الفصيح والعامي ، فما أكثر ما نجد اللحن في الشعر الفصيح ، ونلاقي تفاهة المعاني المكررة فيه ، فلا تمنع قواعد النحو والصرف وجود التفاهة في معاني الفصيح ،ولا يمنع غياب الإعراب من تألق المعاني البكر في الفن العامي . لقد اعتبر الأستاذ (الشايب) الأدب يتكون :من اللفظ الصحيح والمعنى البليغ ،وعلى حد رأيه ، فإن الأدب الشعبي يعبر عن يوميات الحياة الجارية المتكررة، الخالية من الإبداع غير أن الأدب الشعبي قد فرض نفسه واقتحم الجامعات أكثر من الأدب الرسمي[14] .

ويتفق الباحث مع الدكتور أحمد ضيف في نظرته الرائدة التي تنبه إلى قيمة الأدب الشعبي، ومدى تعبيره عن نفسية الشعب، وجدارته بأن يكون موضوعاً للبحث العلمي فما نسميه بالفصحى هي لغة قريش، التي كانت تعاصرها وتعيش إلى جوارها لهجات أخرى مخالفة لها ،وإن اللغة الدارجة كانت مستعملة في القرن الأول من الهجرة، بل ويمكن إيراد أدلة كافية بأنها كانت سارية قبل الإسلام .

فهل من المعقول أن لغة قريش في الحجاز ونجد كانت تجتمع كلها في المعلقات السبع أو العشر؟ لا بد أنه رافق شعراء المعلقات وزاملهم شعراء شعبيون عبروا عن أفكارهم بأساليب تختلف عن أسلوب زهير أو تقاربه، ومثل ذلك العهد النبوي والراشدي ،فلا يمكن أن يتغيب عن الحياة الشعرية شعراء يعبرون عن تجاربهم بأساليب تختلف عن أسلوب حسان والخطيئة وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، فربما إن الشعر الشعبي سابق للشعر الفصيح ،وإن هذا الفصيح امتداد للشعبي، فكما كان شعر الأخطل امتداد لشعر النابغة، وكما كان الأدب العباسي امتداداً للأدب الأموي، وعصر الانحطاط امتداداً للشعر العباسي في مراحله المتأخرة، فكذلك الشعر الشعبي فله جذور ونماء وامتداد[15]،وكذلك النثر القصصي الركيك اللغة، البارع اللمع، كما في ألف ليلة وليلة، والسير الشعبية يؤكد أسبقية الأدب الشعبي، وهناك دليل آخر يؤكد أسبقيته في الظهور وهو إحراق المصاحف بأمر الخليفة عثمان بن عفان، واعتماد مصحف واحد جمع وعمم في الأمصار، فإحراق المصاحف كان بسبب دخول مزيج من اللهجات ولغات القبائل فيه،

وهذا يؤكد أسبقية اللهجة الشعبية على الفصحى، والأدب الشعبي لأسباب عدة هي:

1 -سياسية :ارتبطت بالدين والأدب والتقاليد العربية، نتج عنها إهمال الرواة للشعر الشعبي، لأنه لا يقدم الدليل على صحة القاعدة النحوية ،لهذا تأخر ظهوره وذكر البردوني أكثر من دليل على وجود الأدب الشعبي قبل الرسمي، ولكن تأخر ظهوره منها: طلب الرشيد من الملحنين أن ينشدوه شعراً غير مألوف، فلماذا طلب الرشيد شعراً غير مألوف؟ فهذا دليل على وجوده ،و إلا لما طلب ذلك ولا يمكن أن يكون الرشيد قد طلب فناً مفقوداً، أو معدوماً[16]،بل إنه قد كان له وجود في ذلك الحين، حكى امتداده عبر أحايين سابقة متقدمة .

2 -اجتماعية: رد فعل على رسمية الأقاصيص[17]،حيث كانت الأقاصيص بشتى أنواعها الاجتماعية والسياسية محصورة بطبقة من الشعب، فإذا كانت سياسية انحصرت بطبقة الملوك والأمراء والقادة، تحكى أخبارهم وانتصاراتهم في وقائعهم، وإذا، كانت دينية فموضوعها لا يتعدى كونها وعظيه، وضرب العبر والشواهد في مصرع كبار الملوك وعظماء الشجعان، فنتيجة لهذه الرسمية المملة والمعبرة عن رغبات طبقات بعينها وهي طبقات الملوك، ومن على شاكلتهم ظهر الأدب الشعبي ، أدب عامة الناس بكل شرائحهم الاجتماعية، معبراً عن آمالهم البسيطة وبأسلوب بسيط بعيد عن الرسميات، يحكي تجاربهم ، فكما عبرت المعلقات في الشعر الفصيح عن حياة أصحابها بأسلوب فصيح، كذلك عبرت الأغنيات الشعبية عن أصحابها بأسلوب اختلف عن أسلوب زهير وامرئ القيس، وظهر شعراء شعبيون عبروا عن تلك التجارب .

3 -اقتصادية: العامل الاقتصادي يلعب دوراً مهماً في توجيه الشعوب والجماعات، وأثبتت الدراسات أن الظروف المناخية والجغرافية لها دور أيضاً في ذلك.(فالبيئة الجغرافية المستقرة الموحدة ذات النشاط الزراعي والصناعي يكثر فيها الشعراء الشعبيون، وكذلك غلبة الشعور الجمعي يؤثر على الإنتاج الأدبي، بعكس البيئات الجغرافية التي يسودها الفراغ و الترحال الدائم، بحثاً عن منابع الماء و الكلأ يكثر فيها الإنتاج الأدبي الفردي، [18]، ويظهر بشكل واضح، لأن الفراغ ينتج عنه التأمل الذي ينتج عنه الإنتاج الأدبي والعقلي المعبر عن الفرد لا الجماعة، ففي المناطق التي ساد فيها النشاط الزراعي والصناعي قل الإنتاج الأدبي الفردي بشكل عام، أما الشعبي فقد ظهر بشكل واضح، ويؤكد هذه الظاهرة الدكتور حسين نصار ،فهو يرى أن جنوب الجزيرة العربية المستقر الموحد قد أنتج الشعر الشعبي الذي يعبر عن الشعب ويصور آماله، ويبرز كفاحه، ويرى بالمقابل شمال الجزيرة المشتت المبعثر وقد أنتج الشعر القبلي الذي يعبر عن الجماعات لاعن الشعب، فقال : فقد تبين لنا أن أهل الجزيرة العربية كانوا مختلفين متنابذين ...وأن اليمن فيها شعب متكامل الصورة يمكن أن يصدر أدباً شعبياً يعبر عنه، ويتغنى به، وقد وقع فعلان فقد وهب اليمنيون الفنون الشعبية أدباً رائعاً خالداً، كانوا يتغنون به في كل موطن حلوا به قبل الإسلام وبعده. وإذا تركنا اليمن لم نجد شعباً بل قبائل لا يعرف أفرادها غيرها ولا تتجاوب مشاعرهم مع سواها، بل ينظرون إلى من في خارجها نظرتهم إلى المخلوقات الأخرى التي وجدت لينتفعوا بها، يغيرون عليها فيستولون على أموالها، فليس هناك شعب يعبر عن نفسه، وإنما هناك قبائل وقد عبرت عن نفسها في انتصارها وانهزامها.

إذاً فالشعر الشعبي كان في الجاهلية عند عرب الشمال شعراً قبلياً، لأن الشعر القبلي هو الشعر الوحيد الذي عبر عن الجماعات عندهم ،ولأنهم لم يعرفوا من الجماعات غير القبائل[19]، والدكتور حسين نصار محق كل الحق في ما طرح، فشعبنا اليمني من الشعوب الشاعرة لتنوع الحياة في أرضه وتنوع مناخه، فيتغنى الرعاة به معبرين عن مشاعرهم، متجاوبين مع هذه الطبيعة الساخرة، متناغمين مع عصافيرها بأهازيج شعبية متحررة من كل قيود الأدب الرسمي. فالأرض بما فيها من رعي واخضرار وألفة بين الراعي والقطيع هي منابع الشعر الشعبي.

4 -التناقض بين الناس: إن التناقض بين الناس بمختلف مستوياتهم ما هو إلا انعكاس للبيئة التي يعيشونها، فتعدد

مستويات البيئة الواحدة عكسه الأدب عبر التاريخ، فتشكل أنواع ثلاثة هي: الأدب الجاد، والأدب الهازل ،والأدب المزيج بين الأدبين، وليس غريباً أن يعبر عن البيئة الواحدة أكثر من اتجاه. فقد كان الأدب الجاهلي مزيجاً من الثلاثة، كان زهير وأمثاله يصدرون في أدبهم عن العقل، وكان الأعشى وأمثاله يصدرون عن السخرية، وكان النابغة وأشباهه يهزلون ويجدون، وفي عصر صدر الإسلام كان جرير والفرزدق وأمثالهما يعبرون عن التناقض بين الناس بمختلف مستوياتهم، وفي العصور العباسية تعددت البيئات فكان أبو العتاهية يعبر عن بيئة المتورعين، كما أفصح أبو نواس عن المتهتكين، فهذا التناقض هو صورة طبيعية لطبيعة البيئة، وصدى لتعدد البيئات التي نتج عنها ظهور الأدبين الرسمي والشعبي[20].

5 -التغيير السياسي: إن المتغيرات السياسية تلعب دوراً مهماً في نوعية الأدب، فبعد حدوث التحرر السياسي والاجتماعي بدأ الاهتمام بأدب الشعب، وبعد الانتقال من خصوصيات القصور إلى عموميات الجماهير، وانتقال الحكم من عائلة أو عائلات إلى حزب أو أحزاب أو جماعات، ظهر أدب الشعب بلغته السائرة في الشوارع، الهاتفة في المعامل[21]. فالتحول من خصوصيات القصور كأدب رسمي محصور بطبقة الارستقراطيين في فترة حكمهم، أجبر شعراء وأدباء القصور على التحول إلى الأدب الشعبي لاستعادة مكانة الطبقة الدنيا، ولأنها الساحة الوحيدة بعد زوال الحكم. وهذا ما فعله ابن المعتز، ومحمد عبد الله شرف الدين عند قيام الثورة، فتحول شرف الدين من شاعر رسمي إلى شاعر شعبي بعد سقوط الحكم الذي كان من مناصريه. وبسبب هذه التغييرات السياسية وجد الأدب الشعبي من يحييه. فالتغيير السياسي أوجد أزمات تبحث لها عن حل ومتنفس للكبت الذي كان مسيطراً، بأسلوب يتسامح في بعض القواعد النحوية والصرفية وإن التزم المفردات العربية.

المبحث الثاني: سمات الأدب الشعبي ووظيفته:

ينبع الأدب الشعبي من التجارب الصادقة لأجيال عديدة من البشرية، من أفراحها وأحزانها، ومن ضرورات الحياة وعلاقاتها وحكاياتها الخرافية. ينبع من يوميات الحياة الجارية، يختلط فيها وجه الحياة بصوت الإنسان، وتتطور الحياة مع الإنسان كما يتطور الإنسان مع الحياة، وإتقان الحياة وبديهيات الإنسان العادي صنعها الأدب الشعبي. فقد ظل هذا الفن أشهى تنفس الرحيل وأحلى طرب القوافل، لأنه لم يقف عند الإطراب، وإنما أفصح عن اختبار الرحالين بمكابدة الأسفار وعشرة الرواحل.

وبما أن الأدب الشعبي هو أدب العامة، وهذه العامية هي صورة متدهورة من العامية الفصحى(لغة قريش)،والتي كانت تجاورها وتعاصرها لهجات أخرى، وهذه اللهجات كانت مستعملة آنذاك، وعندما فتح العرب الأمصار واختلطوا بأهلها حدث تغيير في لغتهم الأصلية.

فيقول **يوهان فك** ملخصاً رأي معاصريه من المستشرقين: لما خرج العرب من شبه الجزيرة العربية واختلطوا بشعوب أخرى أخذت لغتهم تتدهور، لأن الشعوب المغلوبة التي لم تستطع أن تروض نفسها على استخدام حركات الإعراب انصرفت عنها جميعاً [22]. ويقول إنه بالإضافة إلى احتكاك الملاك الجدد بأهل الأمصار المفتوحة، واحتكاك التجار والعبيد والخدم بالجيوش العربية، نتج عنه التغيير.(لقيت العربية تغييرات هددت بالمسخ صورة واقعها وجرسها وطبقة تكوينها وتركيبها في الصميم)[23]. إذاً فقد أصيبت الفصحى بالتغيير من حيث حركات الإعراب، وأغراض الكلمة البلاغية، بحيث أصبحت لها دلالات لم تكن لها من قبل، فحدث تفاعل متكامل بين الفصحى - لغة الفاتحين – الرسمية وبين لغات لهجات الأمصار المفتوحة، ولم يقف التغيير عند هذا الحد بين الفصحى ولهجات الأمصار المفتوحة، بل حدث بين الفصحى ولهجات عربية خرجت من الفصحى مع امتداد السلطان الإسلامي، وجرت في البلاد العربية المفتوحة، وهذا كله كان لتقريب وتبسيط اللغة العربية

للشعوب المفتوحة والتعامل معهم بما يطيقون كقول الشاعر[24]:

لعمرك ما اللحن من شيمتي
و لا أنا من خطأ ألحن
ولكنني قد عرفت الأنام
فخاطبت كلا بما يحسن

أدى كل ذلك إلى التغاضي عن قواعد النحو والتجديد في وجوه استعمال الكلمة، فحرف الضاد المميز للفصحى استبدل بحرف اخف هو التاء أو الطاء، وحرف الهمزة استغنى عنه تماماً، وحرف الصاد أصبح سيناً.

فهذا كله كان نتيجة اختلاط العرب بغيرهم ، فعلى سبيل المثال ما حدث عند فتح العرب لمصر، فقد خالطت القبط وامتزجت بهم ، وعاشت على حافة الزراعة، وألزموا القبط استخدام العربية، وجعلوا الإسلام الدين السائد، ولكن العادات ووسائل العمل والتطورات التصقت بنوع الحياة القديمة ،فدخلت عبارات جديدة على العربية ، نابعة من مصر ومن مجتمعها الزراعي، فقبعت القبطية الفصحى في الصوامع والأديرة والكنائس، وضاق مجال العربية الفصحى، وتلاشت العامية القبطية، وغزت العامية المصرية عاميات البدو.

وعندما ننظر في الأدب الشعبي نجد أنه يتميز عن الأدب الفصيح، من حيث البيئة المعبر عنها. فالعرب كان أكثرهم أميين في بقاع الأرض الفسيحة بصحراواتها ووديانها، بهضابها وسهولها، وإن تعبيرهم عن أنفسهم وأوضاعهم وأحاسيسهم لا بد أنه كان معاصراً لوجودهم ، فالأدب الشعبي ابن بيئته وله طابعه الخاص المتمثل بما يأتي:

1 -العراقة: فعراقة الأدب الشعبي تؤاخي السحر، فقد كان السحر يؤدى بلغة أسطورية (أي أدبية) على لسان الكهان بأسلوب السجع في المعابد، وعند تقرب الكهان للملوك نمقوا جملهم إجلالا للسلطان، تعبيراً عن الاحترام والتقدير . ثم تطور هذا السجع ذو الجمل القصيرة التي لا تعتني بالوزن ولا الإيقاع إلى جمل متساوية ذات أوزان متماثلة أطلق على وحدتها كلمة شطر نسبة إلى ضرع الناقة، فالشعر الشعبي أنشده الزجالون ورواه الرواة، وحفظ في ذاكرة الناس قرون عديدة ، ولم يحظ باهتمام أو تدوين إلا في أيام الأندلس.

وعلى هذا الأساس فالرجز شعر شعبي يقترن ترديده أو إنشاده أو الغناء به تسلية للنفس عن مشقة العمل، ومن الهموم، وشحناً لها بمزيد من الطاقة .ولم يكن السحر وحده الذي يؤدى بأسلوب أدبي، بل إن القوة التشريعية الأولى كانت تعتمد على القوة المؤثرة للكلمات من جرس ومعنى ملفوف ورصيف ،فكانت من ثمّ صيغاً أدبية. ومعنى هذا أن أدب الملاحم الشعبية سابقة على الدين، بل إن ما وصلنا من أقاصيص شعبية قديمة يدلنا على عراقة الأدب الشعبي الشفهي،(فهو قديم قدم الحضارة العربية، والخصوصية اليمنية موغلة في القدم وفقاً لحضارة اليمن العريقة، ومتمازجة بالحضارات الأخرى ، وهذا ما يؤكده علماء الآثار والتاريخ ،والتي تشير إليه معظم المصادر) [25]. فيقول حسين سالم باصديق: (تراث الشعوب العربية ليس تراثاً حديث العهد ، ولكنه قديم قدم شعوب الشرق من الصليبيين والهنود والفرس والبابليين والآشوريين والكلدانيين والكنعانيين والفينيقيين والفراعنة وعرب الجنوب والأحباش وثقافتهم وحضارتهم[26].ولقد اتسم ترثنا الشعبي بسمات لم نكن نعهدها من قبل ، فعبر عن آمال وطموحات الشعب وسائر الجماهير الكادحة والمناضلة في كل العصور، واتسم بالقدم فتداوله الناس شفاهاً منذ قرون طويلة قبل الميلاد، ولما خافوا على ضياعه بدأوا بتدوينه لحفظه، واتسم بنكران الذات، فهو مجهول الشخصية.

2 -سهولة اكتنازه في الذاكرة، بحيث يسهل على الجمهور روايته وإنشاده، وعلى مستمعيه متابعته وحفظه، ويؤدي إلى ارتباط المبدع بجماهير الشعب، فهو سجل وثائقي لهموم الجماهير وتطلعاتهم.

3 - التعبير المباشر عن الرغبات بلا تورية ولا مجاز ولا استعارة بلغة عارية لا تكلف فيها، معتمداً على التصريح بدلا من التلميح، يسمي الأشياء بأسمائها،(ويذكر المناطق المظلمة في الإنسان بصريح أسمائها المعروفة عند الشعب دون فرق بين الأنف وبين ما تحت السروال)[27] .

4 -الواقعية: لم ينشأ الأدب الشعبي من فراغ العمل حسب ما يظن البعض ، وإنما نشأ الأدب الشعبي ليلبي حاجة ومطالب ضرورات العمل والعلاقات الاجتماعية والروحية والنفسية على نحو منطقي غير مصطنع، ولا متكلف. (فهو ليس قوالب جامدة مشتقة رأساً من الحياة الجارية بغير أن تبدو فيها فعالية التجربة الفنية[28]. على عكس من وصف الواقعية فيه بأنها باهتة وغير مميزة له بدليل أن فنونه المختلفة تحفل بالرمز و التضمينات والإشارات إلى أشياء وحوادث ابتدعها خيال الإنسان، وأنشأها وهمه ، وهؤلاء مجحفون بحق الأدب الشعبي ،فهو تسجيل فني لتأثير المادة الطبيعية في الإنسان ،وهو حصيلة للجدل بين حياة الإنسان وعمله وبين الطبيعة.

فالأدب الشعبي تتمثل الواقعية فيه بمصاحبة الإنسان الفرد عبر مراحل حياته منذ ميلاده وطفولته ومراهقته وزواجه ووفاته، ويصاحب الإنسان في عمله ولهوه، ويصاحب الفرد كعضو في جماعة. وهو يمثل الوجه الحي في المجتمع، ويعبر عن تفاصيله اليومية بحلاوتها ومرارتها، فهو لسان طبيعتها وبساطتها. ومن هذا المنطلق نجد أن الأدب الشعبي في الأوطان العربية قد أثبت وجوده، وأرسى قواعده في وجه هذا المد الهائل للأدب الفصيح، وهو لا يختلف عن الأدب الفصيح في التعبير عن الأحاسيس وخلجات النفس الإنسانية، ولعله في بعض الأحيان يعبر بشكل أكثر تأثيراً في المتلقي من الشعر الفصيح، وشيوع المنتديات والمسابقات والبرامج التلفزيونية خير شاهد على حضور الأدب الشعبي وتأثيره في نفوس الكثير من الناس. وهذا ليس تحيزاً نحو الأدب الشعبي، بل هو استجابة لحضوره وانتشار مجاله.

5 -الجماعية والتداخل : من شروط الأدب الشعبي أن يكون مجهول المؤلف، وسيلة نقله الشفاه والتداول بين الناس، وهذا ليس معناه إلغاء دور الفرد وإنكاره من أحقيته في نسب ما يبدع إليه، بل لأن العمل الأدبي الشعبي جماعي لا يعبر الفرد فيه عن نفسه، وإنما يعبر عن جماعة بشرية يتفق ذوقه مع ذوقهم ورغبته مع رغبتهم، وكذلك إن الجمهور هم من يحدد شكل هذا العمل، من خلال تداولهم له وصبغه بالصبغة التي يستقرون عليها، بعكس الأدب الفصيح الذي يحدد شكله مسبقاً ولا يستطيع أحد أن يضيف عليه شيئاً، أو يحذف منه شيئا، أو يعيد ترتيبه عند انتقاله من موطن لآخر، فالأدب الفصيح معروف المؤلف محدود القالب مسبقا لا تستطيع أن تغير فيه، وله قوانين تحافظ عليه، في حين إن الأدب الشعبي ملك شائع لأنه من صنع العامة، سأل الفرزدق أحد الرواة ولعله شيخهم عمرو بن العلاء من أشعر أنا أم ذلك الكلب جرير؟ فأجابه أنت عند العلماء وهو عند العوام، فارتاح الفرزدق لحكمه، ولما بلغ جرير هذا القول ضرب فخذيه بكفيه وصاح غلبته والله فليس في الألف من الناس عالم واحد. فالشاهد فيما سبق أن جودة الشعر تقاس بكثرة معجبيه وجمهوره، فقربه منهم وتعبيره بلغة العوام يكسب تجاوبهم وتفاعلهم لما يقول.

6 -أما التداخل في الأدب الشعبي فواضح في تداخله مع فروع الفنون والمعارف من تطبيب وزراعة وقواعد مهنية وحرفية، ومن سلوك اجتماعي واتصال بالمعتقدات الدينية وفنون الغناء والرقص، وهذه الصفة تميزه عن الأدب الرسمي(الفصيح)، لأنه يعيب هذا التداخل، وهذا التداخل هو ميزةً ليس عيباً ، فالأدب الإغريقي القديم أدخل العلوم الرياضية في الأدب، فكلمة أدب لديهم كانت تعني (جملة المعارف التي تسمو بالذهن وتعمل على تحسين العلاقات الاجتماعية وخاصة اللغة والشعر وما يتصل به)[29].

وظيفة الأدب الشعبي:

يؤدي الأدب الشعبي وظائفَ لا غنى عنها في حياة أصحابها حسب مناسباتها، والوجوه المستعملة فيها على النحو الآتي:

أ -ترسيخ معتقد أو قيمة أخلاقية، فلا ينكر أحد دور المأثورات الشعبية من حكايات و أساطير في حياة الفرد والجماعة، وما تقدمه لهم من نماذج للأسوة الحسنة والخلق القويم. تدور هذه الحكايات لتحقيق الأهداف .

ب -ترسيخ مبادئ وقيم دينية ترسي دعائم الأسرة والمجتمع، وتمجد أعمال الأبطال، مما يحقق لها في النهاية هدفاً من أهداف الدين كمثل للعدالة والتربية على الطريقة الإسلامية، وتحفظ لنا ذخيرة واعية نستطيع بواسطتها أن

نضبط التاريخ الاجتماعي للمراحل الأولى، والتعرف على الدوافع النفسية وميولها وسلوكها.

ج -تثبيت فضائل الدين في أذهان السامعين من قبل معظم أئمة المساجد والوعّاظ حتى يكون إقناعهم بها غائراً في الصدور.

د -احتج بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشارحة للمضمون والهدف، لفك تأويلها ورموزها للوصول إلى مغزاها الحقيقي، فأحيانا تفسير الصراع القائم بين قوى النفس المختلفة.

هـ -تجنح لاستخدام لغة سرية لا تفهم إلا بمنطق الأسرار والمجالات المطلوب ترسيخها في النفوس، وترتكز على الأسس الآتية :

1. حدانية الله، فالكون له خالق واحد، تفرد بصفات الكمال، وتنزه عن مشابهة خلقه ،فالإنسان يهتدي إلى ربه مادام سليم الفطرة .
2. ترسيخ مفهوم حب الأنبياء والرسل بتقديمهم المثل الأعلى للشجاعة والكرم والبر والإخلاص والصبر والكفاح، قاصدة إجلاء الظلام الذي يحيط بالنفوس، ومن ثمّ فهي تقدم الموعظة والإرشاد والتربية معتمدة على الأسوة الحسنة، وحسن الخلق لا تؤسس في المجتمع بالتعاليم المرسلة، أو الأوامر المجردة مثل إفعل كذا ولا تفعل كذا، وإنما بالأسوة الحسنة ، فليس من السهل أن تربى الجماعات قبل تربية نفوس الأفراد، والمأثورات الشعبية، حيث تتعرض لتربية النفس، فتدفع بها إلى كل فضيلة ترفع قيمتها، فلم تدع المأثورات الشعبية فضيلة إلا حثت النفس عليها.

وقبل الإسلام لم يكن للعرب كتاب مقدس، فقد كانت الكتب المقدسة حكرا على رجال الدين عن طريق الزهد، وهو ركيزة هامة من ركائز الإيمان داخل المأثورات الشعبية ، حيث ترتكز فلسفته على أنه طب الأرواح، ودواء القلوب الصحيح. يضاف إلى هذا أن المعارضين للتصوف هم فريق لم يذق حلاوته ، ولم يستضيئوا بنور القرآن ادعوا العلم ولم يشموا الروح الصحيح، ولو أنهم ارتشفوا رشفة من التصوف لشاهدوا عناية الله في أهله[30].وهو يمثل جزءاً من حضارة الأمة وتراثها، ويصل ماضيها بحاضرها، كما إنه يعبر عن أصالة هذه الأمة التي احتلت مكاناً واضحاً على خريطة الحضارة الإنسانية، كما استأثر بمكانة مرموقة في مسيرة المركب الفكري[31] .

أما بعد الإسلام فإلى جوار ما ورد في القرآن الكريم من حكايات قرآنية نمت أنواع أخرى على أيدي مجموعة من الوعاظ في ترسيخ تعاليم الدين الجديد ومبادئه، حتى إن بعض الأئمة أفتى بشرعية اختراع الحكايات الشعبية وتثبيتها في أذهان السامعين كفضائل، فالغاية من هذه المأثورات الشعبية الإرشاد والتوجيه في سبيل نشر الرسالة لهداية البشر الضالين، وإصلاح أمورهم، وطور القصاصون أساطير وحكايات أيام العرب المشهورة وفقاً لحاجات الإنسان الجديد، فألفت سير لتمجيد أيامهم وبطولاتهم كسيرة حرب البسوس، حيث نجد فيها المفردات الإسلامية على الرغم من مجيء الإسلام بعد حرب البسوس، وكثرة الحكايات الدينية التي تقتفي سيرة القادة والعظماء بمضامين هامة، منها سيرة الأميرة ذات الهمة، فمضمون هذه السيرة هو الحروب الصليبية، والصراع بين العرب والروم وموقفهم المهاجم للمسلمين، حيث اجتمع ملوك أوروبا لغزو البلاد العربية، فكانت سيرة الأميرة ذات الهمة انعكاساً لهذا الصراع بصورة أدبية قصصية لتقارن بين العرب والروم لا من حيث الشجاعة والحرب فقط ، بل من حيث الأخلاق والمثل والنظم الاجتماعية لاسيما فيما يختص بالمرأة العربية ومكانتها في المجتمع، والفضائل التي تتحلى بها المرأة العربية[32] .

وتأتي سيرة الظاهر بيبرس التي تحكي في مضمونها انتقال موقف الصليبيين من موقف الهجوم إلى موقف الدفاع، بعد أن تمكن الصليبيون من إنشاء إماراتهم في فلسطين العربية، فتكون هذه السيرة بمثابة الحافز الذي يدعو العرب لمناهضة الصليبيين، واسترداد الأراضي العربية السليبة منهم عن طريق التوحد وضم الصفوف والإصلاحات الاجتماعية الداخلية، لتتولد عنها القوة السياسية والحربية التي تستطيع أن تنال النصر وتطرد الغاصبين[33].فتلك هي المضامين

السياسية والاجتماعية والإنسانية التي تحتوي عليها السير الشعبية، والتي تهدف إلى تسليط الضوء على أحداث يجهلها الكثير من الناس بأسلوب شعبي، وبصياغة وجدانية لرأي الناس الحقيقي من حوادث التاريخ وأشخاصه التي تركت تأثيراً عميقاً في حياتهم .

1. معرفة الطابع الوطني أو المحلي لمجتمع أو فئة، فدراسة التراث الشعبي تتيح للدارس معرفة الشخصية التراثية، وتقاليدها واستنباط مميزاتها وطبائع شخصياتها، بهدف الحفاظ على ما نحى من يد الأحداث التي دمرت الحضارات المكتوبة، فدراسة التراث الشعبي تساهم في تعيين وتحليل حقبة من الزمن، كما تبين تأثير الثقافات بعضها ببعض، لأن التراث والإرث الذي خلفه القدماء للأجيال اللاحقة يكون معيناً لهم بالاهتداء به.
2. نقد عيوب المجتمع فهي تتوسل في نقدها بمنهج ايجابي في معظم الأحوال، حيث استغل رسم النماذج البشرية الدالة على طبقة أو حرفة وأضرب معين من السلوك وسياق الأحداث، بدوره يعبر عن نزعة نقدية، تتناول موضوعات كلية ينشغل بها المجتمع الشعبي، وهي تنقسم على قسمين :الأول ينحصر في محاولة تفسير كل ظواهر الحياة المعاشة، وبخاصة تلك التي تتعرض لمتغيرات الحياة. والآخر ينحصر في التعبير عن حرص الإنسان الشعبي بالمحافظة على القيم التي تحفظ تماسك المجتمع الشعبي، والتي يخشى فقدانها في زحمة المتغيرات الجديدة، ومن ثم فهي تسعى إلى ترسيخ معرفة أو تأصيل قيمة إنسانية أو تأكيد مثل اجتماعي أو أخلاقي.
3. استخدام عناصر الماضي المجهول لتجعله محوراً من محاورها، لأن الكشف عن المجهول يثير التشويق، ويحمل في الوقت نفسه فلسفة الشعب التي تقول إن بقاء الجاه أو السلطان شيء محال، كما إن الفقر ذاته ليس عيباً، وحرام أن يذل إنسان فاضل لمجرد أنه فقير، فقد يكون في أصله ملكاً أو تاجراً ثم جار عليه الزمن.
4. الكشف عن المشقة التي يجيدها أصحاب الحرف والمهن في الحصول على لقمة العيش، كما تحرص على إحداث التكافؤ في الحياة الزوجية وتسخر من الأسر التي يختل فيها هذا التكافؤ بسبب السن أو الثروة أو الجاه أو غير ذلك من الأصول.
5. رسم صورة للمرأة على أنها نموذج سواء كانت ملكة أو جارية، فهي جميلة بل بارعة الجمال.

المبحث الثالث: العلاقة بين الأدب الشعبي والفصيح:

إن التواصل والترابط بين الأدب الشعبي والأدب الفصيح في مختلف العصور من العصر الجاهلي إلى عصرنا الحالي، وفي كل المجتمعات لم ينقطع أبداً، وبرغم اختلاف الأفكار في البيئات المتعددة، إلا أنك تجد قواسم مشتركة لكلا الأدبين الشعبي والفصيح، ورغم عوامل التطور الحضاري .

وربطه بالحياة العامة والخاصة لتلك العصور، إلاّ أن الحفاظ على الأصول كانت نقطة ثابتة، وبما أن محور البحث هو الصلة بين الأدب الشعبي والفصيح، وفنون الأدب الشعبي كثيرة، فسوف يحاول الباحث إثبات العلاقة والصلة بينهما عبر أهم فنون الأدبين الشعبي والفصيح وهو (الشعر) لعدة جوانب على النحو الآتي :

الغاية والهدف: يهدف الأدب في كل المجتمعات البشرية إلى تقويم السلوك عبر غرس مجموعة من الفضائل في نفس المتلقي، والتعبير عن حاجات تلك المجتمعات، وعواطفها وتلبية رغباتها بطريقة فنية عبر الكلمة، فكل مجتمع بحاجة للتعبير عن أفكاره وعواطفه ومعتقداته وحياته اليومية، بأسلوب يتماشى مع ثقافته وتحرره الاجتماعي، وحيث إن الأدب وسيلة التعبير عن كل ما ذكر فقد عبر الأدب الفصيح عن حاجات المجتمع بأسلوبه على النحو الآتي :

1 -التعبير عن الطبقة الاجتماعية، ونقل الأشياء في حدود بيئتها، حيث سادت فكرة الطبقات منذ قديم الزمان، فعلى سبيل المثال طبقات المجتمع اليمني خمس هي: الهاشميون، كبار القضاة وكبار التجار، وشيوخ وكبار المزارعين، المتوسطون من فلاحين وملاك وجنود صغار، وأصحاب المهن المتواضعة: تصنيع الأحذية وضرب الطبول وحلق الرؤوس وذبح المواشي وسائر الخدمات العامة الصغرى[34].

تفاوتت نظرة المجتمع إلى تلك الطبقات فصنفت بعضها بذات المكانة العليا والأخرى بالدنيا، وهذا التقسيم أو التصنيف لم يرق لبعض الشعراء الشعبيين، فعبروا عن استنكارهم لهذا التقسيم لأنه مخالف لشرع الله، وهو مبدأ المساواة، فقالت الشاعرة الشعبية غزال المقدشية[35]:

قالوا غزال وامها سرعة بنات الخمس
ما به خمس يا عباد الله ما به سدس
من قد ترفع لوى رأسه وعد البقش
وقال لا باس كم يحبس وما يحتبس
سوا سوا يا عباد الله متساوية
ما حد ولد حر والثاني ولد جاريه
عيال تسعة وقالوا بعضنا بيت ناس
وبعضنا بيت ثاني عينه ثانيه

وكما قلنا بأن الأدب هو وسيلة تعبير عن رغبة للمجتمع، فكل مجتمع يعبر عن أفكاره ومعتقداته وحياته اليومية بأسلوب يتماشى مع ثقافته وتحرره الاجتماعي، وقد عبّرت غزال عن رغبة سائدة في مجتمعها، وعن طبقة تشعر بالغبن، على عكس ما كان سائدا في أدب الفصحى، وهو التعبير فقط عن طبقة الحكام والوزراء وكبار القوم، وعليه فإن أسلوب التعبير اختلف بناء على اختلاف الطبقة، ففي الفصيح كان الأسلوب فصيحاً لأنه يخاطب طبقة مثقفة، فظهور المعلقات في الأدب العربي بأسلوبها الفصيح دليل واضح على ذلك، كما إن الرواة لم يهتموا بما هو دون ذلك، أما بعد انتقال الحكم من الخواص إلى العوام، وحدوث التحرر الاجتماعي فقد بدأ يظهر الأدب الشعبي في لغته السائدة في الشوارع، الهاتفة في المعامل، ففرض نفسه بإرادة الشعب[36]. فأصل الأدب الشعبي مأخوذ من التفكير العام للشعوب والأمم، ومن صور مجتمعاتها وأحاديثها، فليس الأدب الفصيح هو وحده الأدب (لأن للعامية أخيلة وآراء ورغبات تدل على حياة الشعوب الاجتماعية العامة، كما تدل الفصحى على آراء الخواص ذوي الثقافة الخاصة، فقد نسي هؤلاء أن للعامية أخيلة وآراءً وعبارات تدل على حياتهم الاجتماعية العامة، كما تدل أراء الخاصة وأخيلتهم على تلك المعاني المملوءة بالثقافة الخاصة)[37].

إذاً الغاية واحدة عند كل من الأدب الفصيح والأدب الشعبي رغم اختلاف الأسلوب، إلا أن هذا الاختلاف لا يعني خروج الأدب الشعبي عن بناء الأدب الفصيح كليا، بل الأدب الشعبي لا يخرج عن أدبية اللغة إلا من ناحية تجاوز القواعد النحوية، وقد تجلى هذا في شعر الشاعر أحمد القارة، حيث تعامل مع البحر الخليلي باللغة الشعبية الفكاهية بقوله [38]:

فإذا لم يتم صلح عصدنا الحشر
والحق ما حواه الصميلُ
القطوب القطوب صبيان قومي
نحن من كوكبان لسنا فسول

فالبيتان من بحر الخفيف، تداخلت في معماريتهما اللغة العامية، فلم يخرجا عن بناء الشعر الفصيح إلا في بعض المفردات، ولم يخرجا عن أدبية اللغة إلا من ناحية تجاوز القواعد النحوية.

2 - اعتماد كل منهما على الآخر، فكما قلنا سابقاً من أن غاية الأدب سواء كان فصيحاً أو شعبياً هي تلبية احتياجات الإنسان المادية والمعنوية، مهما اختلفت أشكاله ، وعلى اعتبار أن الأدب الشعبي مصدر قوة وتواصل وجداني للأدب الرسمي، وظهر ذلك بصورة جلية في الحركات الأدبية الحديثة، كالرومانسية والرمزية والواقعية، وقد تم توظيف ذلك في الشعر كما في قصيدة بدر شاكر السياب (غريب على الخليج)، حيث تم توظيف مفاهيم الأدب لشعبي في شعره فقال [39]:

بالأمس مررت بالمقهى سمعتك ياعراق.
وكنت دورة اسطوانة.
هي دورة الأفلاك من عمري، تكور لي زمانه.
في لحظتين من الزمان وإن تكن فقدت مكانه.
هي وجه أمي في الظلام .
وصوتها يتزلفان حتى أنام.
وهي النخيل أخاف منه إذا ادلهم الغروب.
فاكتظ بالأشباح تخطف كل طفل لا يؤوب

من الدروب.
وهي المغلبة العجوز وما توشوش عن حزام.
وكيف شق القبر عنه أمام عفراء الجميلة.
فاختارها الأحديلة.
زهراء أنت أتذكرين.
تنورنا الوهاج تزحمه أكف المصطلين.
وحديث عمتي الحفيظ عن الملوك الغابرين.
أفتذكرين؟ أتذكرين؟ لذلك القصص الحزين.
حشد من الحيوان والزمان، كنا عنفوانه.

إن لوحة السياب الفنية تحكي مشاهد وصور ريفية محلية تمثل نوعاً من التعبير لنقل الأشياء في حدود بيئتها الريفية، ألا ترى فيها صورة الأم تحكي الحكايات لولدها، حكايات الأشباح التي تنتشر في الظلام وتخطف الأطفال الذين لا يرجعون لبيوتهم قبل حلول الظلام، كذلك نرى في هذه التحفة الشعبية صورة العجوز بألفاظها العامية، وعبارتها المهملة، تحدث قصة عشق عروة بن حزام وحبه لعفراء، وأمام النار والأكف تستدفئ شتاء، نرى صورة العمة تتطرق لأحاديث تاريخية شعبية، وقد أطلق العنان لذاكرتها تسرد كل ما يخطر ببالها.

وليس السياب وحده من وطف مفاهيم الأدب الشعبي في شعره، بل نرى معظم الشعراء المعاصرين أو الذين يكتبون الشعر الحر، يطرقون لهذا التوظيف مثل محمود درويش وغيره، وهذا مطهر الإيراني وقد تفرد بين شعراء الأغنيات اليمنية في انطلاقة من الموروثات الشعبية، وفي إضافاته الثورية إلى أصالة تملك معطيات التطور، وأسباب الامتداد منها.

وقد حول الفن التقليدي إلى فن ثوري ينبني على أساس موروث، أو على أصالة تراثية عن وعي تحولي، وعن قصد آتٍ من معرفة، بإمكانيات عصرنة التراث، وله في هذا الخصوص عدة قصائد منها قصيدة(البالة)، وقصيدة (يا دايم الخير)وقصيدة(جينا نحييكم)، وقصيدة(فوق الجبل).ولنقف عند قصيدة البالة، من قصائد الأفراح الأعراسية، وقد جددها الإرياني ووسع دائرتها من دائرة العشيرة إلى دائرة الشعبية، ومن عوائد قرية إلى تاريخ شعب كامل، لأنه عبر عن مأساوية الشعب اليمني، وحالة المغترب اليمني في ظل الاستبداد، ويسرد أسباب غربته وغربة أهله [40] فيقول[41]:

واللية البال ما للنسمة الساريه
هبت من الشرق فيها نفحة الكاذية
فيها شذا البن فيها الهمسة الحانيه
عن ذكريات الصبا في أرضنا الغاليه
والليلة العيد وانا من بلادي بعيد
ما في فؤادي لطوفان الأسى من مزيد
قلبي بوادي بنا وابين ووادي زبيد
هايم وجسمي أسير الغربة القاسيه

ويتذكر نفحات البن وأريج الكاذي، ثم يفند أسباب الاغتراب فيقول [42]:

خرجت أنا من بلادي في زمان الفنا
أيام ما موسم الطاعون قالوا دنا
وماتوا هلي ومن حظ النكد عشت انا
عشت أزرع الأرض واحصد روحي الذاوية
ذكرت أخي كان تاجر أينما جا فرش
جو عسكر الجن شلوا ما معه من بقش

فالأبيات قد فندت أسباب الاغتراب، المتمثلة في المرض والقهر السياسي بمفردات شعبية محلية تحمل المعنى السياسي(الثوري)، فإنَ قارئ هذه الأبيات يحس بالبساطة الشعبية لأنها صورة واقع المغترب اليمني بعمق، وشَدته للعودة للوطن، للقيام بثورة، وتحولت من أبيات للفرح إلى أبيات للتحرر والثورية، فمواطن التلاقي بين الأدب الشعبي والفصيح في هذه القصيدة تمثل في صياغة التجربة الشعورية للمعلقات. ذلك الفن الشعري الشامخ الذي جمع بين الغنائية والقص، وبلغ أقصى درجاته في الوصف القصصي لرحلات الصيد[43]، وقد ظل القص عنصراً فنياً وسمة أسلوبية داخل القصيدة العربية التقليدية إلى بداية العصر الحديث، عندما أصبحت القصة فناً مستقلا وعملاً أدبياً منثوراً.

والحوار في الأدب الشعبي هو: امتداد لجذوره القديمة في الأدب العربي وفي القصيدة الفصحى، حيث يشكل هذا

الموضوع قاسماً مشتركاً في معظم قصائد الأدب الشعبي بكل تشكيلاته[44]. مثال ذلك قصيدة (تفرطة بيت البسيس)، فهي إلى جانب ما ترسمه من العادات والتقاليد الشعبية وثيقة للصراع بيت جيلين من النساء هما الجيل القديم وجيل الشباب[45] ، حيث تقوم القصيدة على الحوار الذي نسجه الراوي للشاعر ليحكيها بطريقة شعرية بكل تفاصيلها(أي يحكي قصة التفرطة). فيقول :[46]

جوب وقال :
قالوا لنا أمس العشي جيراننا
قالين جرى شيء هالنا
الظهر واحنا جالسات
هذا الكلام يوم الخميس في تفرطة بيت البسيس
كل على ميد اللسيس[47]
قامين عليه الشاكمات[48]
قالت البنت اسكتي
ماذا الولاد يا جدتي
وانتي محقتي عصبتي
قد كلنا متوافيات
فقالت العجزه له؟
يابنت اخي ذي الهنجمه
وكم كم ذا الترخمة
بتحضرين متشلخات
ماجالكن والزينطة
شاتمحقين التفرطة
أفه شم المقمطة
كيف تفرطة للبازيات

وتستنكر شابة من الحاضرات تواجد مرضعة، وما تسببه رائحة الرضاعة من روائح فتهاجم الجيل القديم من النساء، فترد عليها عجوز من الحاضرات على لسان الراوي بقوله :[49]

فقالت العجزة حذر
حاشا عيالي والقصر
مني وسمعي والبصر
من ذا الكلام المخزيات
ما زاد بقي شيء للكبار
ميزة على ذولا الصغار
عاد كان للعاقل شنار
فقالت الخشف اللعوب
يالله خليها غيوب
لا تكثري حر الشقوب
قد العجائز مزبلات[50]
فقالت العجزة تعيه
دوري هنا يا مسفعة
يحق لك ذي الخلفعة

فالقصيدة الشعبية قائمة على الحوار مليئة بالمشاهد الحوارية ، استطاعت أن تفرض نفسها ببنائها القائم على السرد والحوار، وهذا السرد والحوار ما هو إلا امتداد للحوار في الفصيح، فهذا وضاح اليمن يتغزل ويصور اقتحامه البطولي بشكل حواري فقال[51] :

قـالتْ ألا لا تلجن دارنـا إن أبانا رجـل غائـــر
قلتُ فإني طـالب غـــرةً منه وسيفي صارم باتر
قالتْ فإن البحر من دوننا قلتُ فإني سابـح ماهر
قالتْ فحولي إخوة سبعة قلتُ فإني غـالب قاهـر
قـالتْ فليـث رابض بيننا قلتٌ فإني أســد عـاقر
قالتْ فإنا اللــه من فوقنا قلتُ فربي راحـــم غافر
قالتْ لقد أعييـــتنا حجة فأت إذا ما هجع السامر
اسقط علينا كسقوط الندى ليلـة لا نـاه ولا زاجر

وقد سبق وضاح اليمن شاعر آخر في هذا النهج هو عمر بن أبي ربيعة ،فكان الأسلوب الحواري بينه وبين المعجبات به سمة بارزة لديه، حيث جعل من نفسه معشوقاً لا عاشقاً فقال[52] :

بينما ينعتنـــني أبصـــررنني
دون قيد الرمح يعدو بي الأغر
قالت الكبرى أتعرفن الفتى
قالت الوسطى نعم هذا عمـر
قالت الصغرى وقد تيمتها

قد عرفناه وهل يخفى القمر

إذاً من خلال النماذج للأدبين الشعبي والفصيح يتضح دون شك أن العلاقة بينهما واردة، وما وجدناه من حوار في نموذج الشعر الشعبي ما هو إلا صورة ممتدة من النماذج الفصيحة في العصور التي سبقت.

3 -التكرار وتحوير الكلمات، فالتكرار مصطلح عربي كان له حضوره عند البلاغيين العرب، ويعني: (دلالة اللفظ على المعنى مكرراً)[53]، فهو إحدى الظواهر الأسلوبية التي تستخدم لفهم النص الأدبي ، وإحدى الأدوات الفنية الأساسية للنص التي تخلق جواً موسيقياً متناسقاً، فالإيقاع ما هو إلا أصوات مكررة تثير في النفس الانفعال، وهو من الأدوات الجمالية التي تساعد الشاعر على تشكيل موقفه الشعري، وتصويره تصويراً دقيقاً[54]، وتسهَل على الجمهور روايته وإنشاده واكتنازه في الذاكرة، ويكون التكرار بالكلمة أو بمقطع أو بالعبارة، ويمكن إرجاع أسبابه إلى تجسيد حالات نفسية يرتكز عليه الشاعر ليعكس ملامح رؤيته النفسية، وآخرون قالوا إنه نتيجة محصول الفلاحين الفني ليضيف في درجاته وأبعاده مما هو منطقي مع المجموعات البشرية المتأخرة[55].

أما تحوير الكلمات فهو: الخروج بها عن أصولها المرئية الجارية، وهذه الصفة (التكرار وتحوير الكلمات) هي صفة مشتركة بين الشعر الشعبي والفصيح، فهذا الشاعر الشعبي يعبر عن كرمه واهتمامه بالغير أكثر من اهتمامه بنفسه، ويعبر عن عظمة نفسه وتجاوزه للذات، فيقول[56]:

يا نجمة الصبح طلي وارجعي روحي

وسلمي لي على من عندهم روحي

بحق من أنزل القرآن في اللوح

عندي دواء الناس ما عندي دواء روحي

فنجمة الصباح مشحونة بالدلالات النفسية، وتكرار لفظة(روحي) جاءت ثلاث مرات بمعان مختلفة. جاءت الأولى بمعنى اذهبي، وجاءت الثانية بمعنى أحبابي، والثالثة بمعنى الإضافة لضمير المتكلم. فالتحوير لمعاني الكلمات واضح فرضته الحالة النفسية للشاعر، التي تمثلت في الأرق عند ندائه لنجمة الصباح في الظهور كبرهان على طول الانتظار، وكذلك التناقض بين الليل والنهار، وبين الأمل واليأس، ونلاحظ أيضاً قرب المفردات من الأسلوب الفصيح دليل على الاشتراك بين الشعبي والفصيح. والأدب الشعبي في أي عصر من العصور، وفي أي مجتمع من المجتمعات له أصالته، ولغة الأدب الشعبي تعود للهجة المنطقة التي قيل فيها في أي قطر من الأقطار العربية، ولهجة تلك المنطقة لذلك القطر هي أصلا من اللهجة العربية الفصيحة، وعلاقة الأدب الشعبي في أي إقليم ومنطقة لأي بلد هي علاقة الخاص بالعام، ومن ثم فالأدب الشعبي اليمني يرتبط بالأدب الشعبي العربي قديمة وحديثه .فلننظر إلى الموال المصري الذي جعل كلمة (شافاني) على أربعة معان مختلفة بقوله :[57]:

وكانْ جرى أيه لو الطبيب جه لحد البيت وشافاني

دنى كنت خفيت ورديت مثل عاداتي وشافاني

إلا طبيب ندل جاء لحد البيت واتخفى وشافاني

والرب موجود عالم بحالاتي وشافاني

فقد جعل الشاعر الشعبي المصري كلمة (شافاني) على أربعة معان مختلفة، جاءت في الأولى بمعنى (عالجني)، والثانية بمعنى (شفيت)، والثالثة بمعنى(رآني)، والرابعة بمعنى (شفاني).

أما في الشعر الفصيح فالشابي نموذجا، فالتكرار في قصائده جاء بصورة ملفتة، وبشكل مكثف كقوله[58]:

هاهنا في قلبي الرحب العميق

يرقص الموت وأطياف الوجود

هاهنا تعصف أهوال الدجى

هاهنا تخفق أحلام الورود

هاهنا تهتف أصداء الفنا

هاهنا تعزف ألحان الخلود

هاهنا تمشي الأماني والهوى

والأسى في موكب فخم النشيد

هاهنا الفجر الذي لا ينتهي

هاهنا الليل الذي ليس يبيد

فهذا التكرار المتتابع للفظة (هاهنا) جسد حالة نفسية يعيشها

الشاعر، استحضر بها معاناته، فقد أصيب الشاعر بخيبة أمل جعله يدعو إلى التغيير تمهيداً للارتحال إلى عالم آخر، فوجد في التكرار غايته، فحاول أن يخلق من خلاله واقعاً سياسياً واجتماعياً جديداً، يرقص فيه الموت وأطياف الوجود، وتمشي الأماني والهوى والأسى في موكب واحد، والتكرار أوجد لنا نوعاً من الإيقاع الموسيقي عكس ملامح نفسية الشاعر، وكشف عن موقفه من الحياة والكون والطبيعة، وجعل من التكرار وسيلة لتصوير مشاعره وأحاسيسه، وإذا كان التكرار وسيلة لبروز موقف الشاعر فيكون أكثر أهمية عندما يتصدر السطر الشعري، فأكثر تكرار الشابي من هذا النوع، فيؤكد أهمية القلب كمصدر لوجعه وآلامه. فيقول[59]:

ياقلب كم فيك من دنيا محجبـــــــة
كأنهـا حيـــن يبدو فجـرها إرم
ياقلب كم فيـك من كون قـد اتقدت
فيه الشموس وعاشت فوقه الأمم
ياقلب كم فيــك من أفقق تنمـــتــقه
كواكب تتجلى ثــم تنـــــعــدم
ياقلب كم فيـك من قبر قد انطفـــأت
فيه الحيـاة وضجت تحتـه الرمم
ياقلب كم فيك من كهف قد انحبست
منه الجداول تجري ما لها لجـم

فتكرار الجمل التي تصدرت السطر الشعري أكدت مصدر ألم الشاعر ووجعه، فهو مصدر حياة الإنسان وسر شقائه وسعادته ومستودع أسراره، كما إن هذا الإلحاح بداية كل سطر شعري أبرز جنوح الشاعر إلى الهجرة الروحية، وتعلق همته ببيئة أخرى مثالية يحيا بها روحه، ويحلق فيها بخياله، وهذا الإحساس لم يجعله يهرب من الواقع ليعشق ذاته، وإنما كان دافعاً للبحث عن عالم آخر تصفو فيه روحه، ويتخلص من آثام عالمه وشروره ، وجهل الناس ولومهم[60].

إذاً فدلالات التكرار كثيرة، ولها وظيفة جمالية ،مما يجعل له دلالات في كل مرة تعكس وضعاً معيناً، فقد يكون غرضه التلذذ لحفظ مدلوله(محبوب مرغوب فيه) نحو الصحة الصحة[61]. و تكرار الضمير(أنت) في قصيدة (قلت للشعر) بقوله [62] :

أنت ياشـــعر فلذةُ من فؤادي
تتغنى وقطـعة من وجـــودي
أنت ياشــعر قصة عن حياتي
أنت يا شعر صورة من وجودي
أنت يا شـعر كأس خمرعجيب
أتلهـى بـــه خـلال اللحـــود
أنت ما نلت من كهـوف الليالي
وتصفحت من كتـــاب الخلود

فقد حاول الشاعر من خلال تكراره للضمير (أنت) بداية الأبيات أن يجذب انتباه القارئ والتأثير فيه، ليعيِّشه جو النص، فغرض التكرار هنا التنبيه، وقد جسدت الأبيات عاطفة الشاعر وحبه للشعر، فهذا التكرار المتتابع جعل القارئ يشارك الشاعر مشاعره، وتعمق في ذاته هذا الإحساس بدرجة لا يستطيع أي أسلوب آخر أن يحققه، فهذا الإيقاع هو نبضات لقلب الشاعر تجاه محبوبه، فالصوت يجسد الإحساس.

أتمنى أن أكون قد وفقت في عرض الموضوع بشكل أقرب إلى الصواب وأدنى إلى الفهم.

الهوامش والمراجع

1 -تاريخ الأدب العربي -العصر الجاهلي،د. شوقي ضيف، دار المعارف، 1960م، ص7.

2 -النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، طبعة القاهرة، 1311هـ ، ج1، ص3.

3 -الأدب الشعبي العربي من مهد التواصل غلى قمة الترابط والخصوصية اليمنية، عبد الله خادم العمري، مطبوعات منتدى العمري، ط1، د.ت، ص24 -25.

4 -لسان العرب ، ابن منظور، مادة شعب.

5 -الأدب الشعبي العربي، مفهومه ومضمونة، مطبوعات جامعة القاهرة -فرع الخرطوم، 1972م، ص83.

6 - رحلة في الشعر اليمني قديمة وحديثه، عبد الله البردوني، دار الفكر، 1995م، ط5، ص301.

7 -الحياة الأدبية في جزيرة العرب، المجموعة الكاملة، دار الكتاب اللبناني -بيروت، 1972م، ج6، 422.

8 - الأدب الشعبي اليمني، د. مصطفى أبو العلا، دار الهدى للنشر والتوزيع - مصر المنيا، 1990، ص11.

9 -بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، المكتبة العصرية، لبنان، د.ت، ص218.

10 - العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، ط القاهرة 1329هـ، 665/1

11 -الأدب الشعبي ،أحمد رشدي الصالح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة 2002، ص19.

12 -العبر وديوان المبتدأ والخبر، ص655 .

13 -تاريخ أدب الشعب ،نشأته -تطوره - أعلامه، حسين مظلوم رياض ،مصطفى محمد الصباحي، القاهرة، 1936، ص68.

14 -فنون الأدب الشعبي ، عبد الله البر دوني، دار البارودي، بيروت -لبنان ،ط5، 1998م، ص148.

15 -رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه، ص297

16 -رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه، ص296

17 - المصدر نفسه، ص299 .

18 - شعر العامية في اليمن، د. عبد العزيز المقالح، دار العودة بيروت، 1986 ، ص41.

19 - الشعر الشعبي العربي، د. حسين نصار، المكتبة الثقافية، 1992م، ص23.

20 - رحلة في الشعر اليمني ، ص

21 - المصدر نفسه، ص294.

22 - العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، ليوهان فك، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، د.ت، ص9.

23 - المصدر نفسه، ص24.

24 - الأدب الشعبي ، أحمد رشدي الصالح، ص47.

25 -الأدب الشعبي العربي من مهد التواصل إلى قمة الترابط، ص26.

26 -في التراث الشعبي اليمني، حسين سالم با صديق، د.ت ،340.

27 -رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه، 298 -299.

28 - الأدب الشعبي، أحمد رشدي الصالح، ص28.

29 -المصدر نفسه، ص31.

30 - الأدب الصفوي، اتجاهاته وخصائصه، د.صابر عبدالدايم، دار المعارف، 1984م، ط2، ص118.

31 -من أعلام الفكر والأدب ، محمد جواد الدوري، مجلة الحياة - صيف، (د.ط) ، ص2.

32 -القصص الشعبي العربي في كتب التراث، د.مرسي الصباغ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر - الإسكندرية، 1999م، ص44.

33 -سيرة الظاهر بيبرس، دار الكتب الشعبية، بيروت - لبنان، د.ت، ص45.

34 -رحلة في الشعر اليمني المعاصر، ص336.

35 -المصدر نفسه، ص335.

36 -فنون الأدب الشعبي، البر دوني ، ص294.

37 -تاريخ أدب الشعب، حسين مؤنس، ص136.

38 -رحلة في الشعر اليمني، 328.

39 -أجمل ما قاله بدر شاكر السياب، إعداد ضياء حسين، دار الندى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2006، ص80.

40 -فنون الأدب الشعبي، ص370.

41 -المصدر نفسه، 374.

42 -فنون الأدب الشعبي، البردوني، ص374 -375

43 -محاضرات في القصص في أدب العربية ماضيه وحاضره، محمود تيمور، معهد الدراسات العربية في القاهرة، 1958م، ص53.

44 -شعر العامية في اليمن، المقالح، ص232.

45 -المصدر نفسه، ص232

46 -شعر العامية في اليمن، 233.

47 -من اجل اللسيس.

48 -المحتفلات.

49 -شعر العامية في اليمن ، ص235.

50 -متعبات.

51 -ديوان وضاح اليمن، تحقيق، محمد خير البقاعي،دار صادر -بيروت،ط1، 1996م ،ص39.

52 -ديوان عمر بن ابي ربيعة، شرح يوسف شكري قرحان، دار الجيل بيروت، د.ط، ص280.

53 -علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1405هـ - 1985م، ص204.

54 -التكرار في شعرأبي القاسم الشابي، على محمد نشطان، صحيفة الثورة، الجمهورية اليمنية، العدد16277، 2009م ص19.

55 -الأدب الشعبي ، أحمد رشدي الصالح،ص62.

56 - فنون الأدب الشعبين البر دوني، ص248.

57 - الأدب الشعبي، أحمد رشدي الصالح،ص63.

58 -ديوان أبي القاسم الشابي، تحقيق الدكتور إيميل أكبا، دار الجيل - بيروت، 1997م، ص251.

59 -المصدر نفسه، ص206.

60 -التكرار في شعر أبي القاسم ألشابي، صحيفة الثورة، ص19

61 -النحو الوافي، عباس حسن، أوند دانش للطباعة والنشر، 1425ه2004م،ج3، ص410.

62 -ديوان أبي القاسم الشابي، ص434 -436.